الفصل الأول

الجدال بالتي هي أحسن

(خاص بقضايا الدعوة إلى الله تعالىٰ)

قيل لهرِم بن حبَّان حين احتضر : أوصِ .

فقال : إن الوصية من المال ، ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل .

وهذه وصية في غاية الروعة حقاً ، ذلك لأنها إحدى أسس الدعوة إلى الله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما انصرف المشركون عن قتلىٰ أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأىٰ منظراً ساءه ، ورأىٰ حمزة رضي الله عنه : قد شُقَّ بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن تحزن النساء أو تكون سنَّةً بعدي ، لتركتُهُ حتى يبعثه الله تعالىٰ من بطون السباع والطير ،

لأقتلنَّ مكانه سبعين رجلاً منهم » ثم دعا ببردة فغطىٰ بها وجهه فخرجت رجلاه ، فجعل على رجليه شيئاً من الإذْخر ، ثم قدَّمه وكبَّر عليه عشراً ، ثم جعل يُجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلَّىٰ عليه سبعين صلاةً ، وكان القتلىٰ سبعين ، فلما دُفنوا وفُرغ منهم ، نزلت هذه الآية : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ . . . حتى قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ فصبر ولم يمثِّل بأحد[1] .

فما هو الجدال ؟

في اللغة والاصطلاح ، يعني الجدل : مقابلة الحجة بالحجة ، وبالتالي فالمجادلة : المناظرة والمخاصمة ، ومن هنا جاءت تسمية إحدى سور القرآن بالمجادلة ، حيث جادلت خولة بنت ثعلبة رسول الله ﷺ في قضية الظهار[2] .

وهناك ألفاظ ذات صلة بالمجادلة ، مثل المناظرة : وهي ترداد الكلام بين شخصين ، يقصد كل واحد منهما تصحيح

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٢٩٠ـ٢٩١ .

(٢) للتوسع يراجع : تفسير الطبري : ٦/٢٨ ، تفسير القرطبي : ١٧/ ٢٧٠ ، الدر المنثور للسيوطي ١١٧٩/٦٠ ، مستدرك الحاكم : ٤٨١/٢ .

قوله وإبطال قول صاحبه ، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق .

أما المناقشة ، فهي مراجعة الكلام بقصد الوصول إلى الحق غالباً .

ومن الجدل ما هو ممدوح شرعاً ، حسب مقتضيات الظروف والأوضاع ، بل قد يصل إلى حدِّ فرض العين خاصة إذا كان المطلوب الدفاع عن الحق .

ومن الجدل ما هو مذموم ، خاصةً إذا كان الهدف منه باطلاً ، أو يؤدي إلى باطل ، أو يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً .

من هنا نفهم أن كل النصوص الشرعية الآمرة بالجدل محمولة على الجدل الممدوح شرعاً ، أما النصوص الشرعية التي ذمَّت الجدل فمحمولة على الجدل المذموم شرعاً ، وذلك كما قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٤-٥] .

فلا تعارض في مسألة الجدل ، إنما ما نهىٰ الله عنه فهو

مذموم ، وأما ما أمر به فهو الجدال بالحق لإقامة الحجة على أهل الباطل ، قال الله تعالىٰ في معرض الحديث عن الجدل المحمود من حيث تقديم البراهين والحجج القرآنية : ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٢] .

أي أن يكون جهادك باللسان لتبيان الحق لا بالسبِّ والشتم ، إنما بإقامة الحجج ، وإقناع الآخرين بما في القرآن والسنة من معلومات ونحو ذلك .

ولا يظنن أحدٌ أن الجهاد بالكلمة شيءٌ سهل ويسير ، إنما قد يكون من الخطورة بمكان ، بل قد يؤدي إلى الاستشهاد في سبيل الله تعالىٰ .

إذاً :

ذكرت آية النحل نماذج من أساليب ووسائل الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وأهمها :

الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، وعلى كل داعٍ أن يستعمل أي أسلوب من هذه الأساليب ، وذلك حسبَ المقام والحال .

وأما الحكمة فهي التعليم المتقن الدقيق الواضح الدلالة ،

وبالتالي فهي وضع كل شيء في موضعه ، ويكون معرفة ذلك عن طريق التجربة أو العقل .

وأما الموعظة فأصلها من الوعظ ، وهو النصح والتذكير بالعواقب ، والهدف منها تليين القلب وجعله مستعدًّاً لتلقي كل ما له علاقة بالله ورسوله .

قال العلامة الألوسي رحمه الله تعالى : الموعظة الحسنة هي مجموعة العبر النافعة ، والخطابات المقنعة ، والإشارات المخوفة على وجهٍ لا يخفى على المدعو من أن الداعي يناصحهم بها ، ويقصد بما ينفعهم[1] .

وكل أسلوبٍ يحمل في طيَّاته الترغيب والترهيب فهو أسلوب حسن ، بحيث إذا عرف الإنسان ماذا أعدَّ الله للمتقين الطائعين ، تراه ينطلق نحو الفضائل والأعمال الخيرة .

وكذلك إذا عرف ماذا أعدّ الله للإنسان العاصي من سوء منقلب ، ونار حرُّها شديد ، وماؤها صديد ، وحليّها ومقامعها حديد ، تراه ينطلق مبتعداً عن كل الرذائل وما إلى هنالك .

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : ١٤/ ٢٥٤ .

فالترغيب والترهيب يعطي دوراً كبيراً في قضية الناس ، بحيث يعيش الواحدُ منهم حالةَ الرجاء والترغيب .

ومن هنا نفهم السر الكامن وراء تكرار القرآن الكريم والتأكيد على هذا الأسلوب ، فعندما يأتي الوعظ في جانب الترغيب في مسألة الدخول إلى الجنة مثلاً ، ترى أن الإنسان انفتح على ذلك أكثر ، وارتاحت نفسه ، وأدرك عقله لحقائق الأشياء ، وتحمَّس لكل عملٍ يوصل إلى الجنة ، وإذا حدث العكس ، فالعكس هو الصحيح ، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك : قوله الله تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن

تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين : ٤ـ٣٦] .

وأما الجدال بالتي هي أحسن :

فهو أسلوب من أساليب الدعوة ، وهدف الجدال أصلاً : تعاون الفريقين المتحاورَين على معرفة الحقيقة والتوصل إليها ، بحيث يدلي كلٌّ منهما بحججه وبراهينه محاولاً إقناع الآخر بما لديه ، وقد أصاب العلامة الرازي عندما قسّم البشر إلى ثلاث طوائف :

فالطائفة الأولى التي تتجه إليها بالحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثانية التي تتجه إليها بالموعظة هي الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال إلى حدِّ الحكماء المحققين ، كما لم يبلغوا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوامٌ بقوا على الفطرة الأصلية ، والسلامة الخلقية ، ومعنى قوله تعالىٰ : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] ، أي : ادعُ الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة ـ وهي البراهين القطعية اليقينية ـ وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل[١] .

لكن قد نرىٰ في الواقع المعاش بعض المتزمّتين المتشدِّدين ، الذين يمنعون الجدال هنا وهناك ، تحت حجج القداسة والمقدسات!!

والردُّ على ذلك ، أن الله تعالى أكد على الحوار والجدال ، وفي كل شيء ، فلا خطوط حمراء يُمنع تجاوزها ، ولا قضايا لا يجوز الحديث عنها ، إنما أكد الله ذلك من خلال تبيانه للناس ، أنه سبحانه وتعالى حاور ألدَّ أعدائه وهو إبليس ، ليبيّن من خلال ذلك مسألة الحوار في كل شيء ومع أي شيءٍ ، قال الله تعالى في ذلك : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ

(١) مفاتيح الغيب ـ التفسير الكبير ـ : ٥/ ٥٣٧ .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص : ٧١ـ٨٥] .

إنها لوحة رائعة ، فيها من الدروس والعبر الشيء الكثير ، حيث إن الله سبحانه أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبىٰ ، إنه اعترض على ذلك الأمر الإلٰهي ، والاعتراض على أوامر الله مسألة كبيرة ، لكن هل أمر الله خازن النار أن يجعل إبليس مع حطب النار ؟! هل أمر الله بتعذيبه وما إلى هنالك ؟! .

أبداً ، إنما حاوره وأقام عليه الحجة ، وردَّ إبليس وجادل ، إنه قاس أمر الدين برأيه فأخطأ في ذلك .

لقد ظن أن الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام أدنى من النار التي خُلق منها هو ، فأفتىٰ بغير علم ، وأعطىٰ رأيه في مسألةٍ تختص بالله وحده .

إنه التكبر الإبليسي الذي جعل إبليس يعترض ويحتج

بأفضليته على آدم لأنه خُلق من نار ، بينما خَلق الله آدم من صلصال كثيف ، قال تعالىٰ في تصوير المسألة : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣] .

بل الأعجب في المسألة ، أن الله تعالى ـ وبعد أن أمر بطرد إبليس من الجنة ـ سمح باستمرار الحوار مع إبليس العاصي ، حيث طلب إبليس من الله أن يؤخّره إلى يوم القيامة لهدف عجيب هو إغواء بني آدم ! !

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩ـ٤٠] .

لكن الله سبحانه وتعالى أكّد على أن هذا الأمر يتم فقط مع الجماعة المستعدة للغواية ، أما الذين ساروا على نهج العبودية لله ، وانضبطت كل علاقاتهم بالله ، فإن الشيطان لايستطيع أن يؤثّر فيهم أبداً :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١ـ٤٢] .

وهناك لوحة قرآنية أخرى ، فيها دلالة واضحة على تأكيد الله على مسألة الجدل والحوار ، حتى بين الله وبين مخلوقاته ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ

فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠ـ ٣٣] .

إنها محاورة بين الله تعالىٰ وملائكته ، وفيها تبيان لمكانة بني آدم ، ومحور هذه المحاورة اختيار الله آدم خليفةً عنه على الأرض .

فلما أخبر الله تعالى الملائكة : ﴿إني جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾ ، تساءل الملائكة متعجبين ومستعلمين : ﴿أتجعلُ فيها مَنْ يفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ﴾ .

ثم لماذا تستخلف من غير الملائكة مادام الملائكة في حالة طاعة وعبودية لك ؟!

جاء الرد الإلٰهي : ﴿إني أعلم مالا تعلمون﴾ .

ولعلّ الإنسان ـ وهو يقف أمام هذه اللوحة القرآنية ـ يتساءل : لماذا يجادل الله بعض مخلوقاته ، وهم الملائكة ،

في قضية لا علاقة لهم بها ، وهي قضية خلق آدم واستخلافه في الأرض ؟

إنه عدل الله ورحمته ، حيث جادل الملائكة ليبيِّن لهم الحجج الدامغة في مخلوقاته ، فهم لم يتصوروا أن الله تعالىٰ يضع بعض أسراره في بعض مخلوقاته ، ليرفعها إلى مراتب عالية جداً ، ولذلك أُصيبوا بالدهشة عندما طُلب منهم ـ وهم الملائكة المتفرغون للعبادة ـ أن يسجدوا لمخلوقٍ بشرٍ يُصيب ويخطئ .

***

وفي الحديث القرآني عن أسلوب أنبياء الله مع أقوامهم ، نرىٰ أسلوب الجدال بالتي هي أحسن هو العنوان الرئيسي لذلك كله ، بحيث نجد أن كل نبي من الأنبياء تحمَّل الكثير والكثير في سبيل تبليغ دعوة التوحيد ، ولم يتخذ إلا أسلوب الجدال والحوار ، ولنضرب بعض الأمثلة :

فنبي الله نوحٌ عليه السلام :

أرسله الله تعالى بشيراً ونذيراً ، وقام بتبليغ الدعوة ، واتخذ لذلك أساليب عديدة :

فتارةً يبيِّن لهم أن الأصل والأصح هو عبادة الله الواحد ،

وأن ماهم عليه من عبادة أصنام ينحتونها بأيديهم هو العمل الخاطئ ؛ الذي لا يجلب إلا الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وتارةً يؤكد لقومه أنه لا يريد من عمله هذا إلا وجه الله ، فهو لا يهدف إلى كسب الأموال والمناصب ، قال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٠٥-١١٠] .

ولما لم ينتفعوا بأي أسلوب حواري حضاري سلمي ، هدَّدهم بعذاب الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح : ١-٤] .

إنها مرحلة طويلة ، قاربت ألف عام ، وهو عليه السلام يدعوهم بأساليب متنوعة ، وهم يقابلون ذلك باعتراضات ومواجهات غريبة ! !

فاعترضوا على كونه واحداً من البشر ، يأكل ويشرب وينام ، وكان بودِّهم لو أنه كان ملكاً من الملائكة ، قال الله تعالىٰ في معرض الحديث عن هذا الاعتراض :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٤] .

واعترضوا عليه بأن أتباعه فقراء وضعاف القوم ، وليسوا أغنياء وسادة .

وبالتالي لن يؤمنوا به حتى يطرد هؤلاء !! ﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١١-١١٤] .

وبدلاً من أن يتجاوبوا مع تلكم الأساليب الحوارية ، انطلقوا إلى الردِّ بالشتائم وما إلى هنالك ، فهل يردُّ على الشتائم بمثلها ؟!

لقد اتهموه بالضلالة فلم يردَّ عليهم : بل أنتم الضالون .

إنما نقل القضية إلى ماهو أهم منه ، وهي مسألة إرسال الله له وحمل لواء النصح والتعليم لهم : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٦٠ـ٦٢] .

واتهموه بالجنون ، فلم يردَّ عليهم بالمثل ، إنما اكتفىٰ بالإعراض ، واتجه إلى ماهو أهم ، وهي مسألة مزاولة وممارسة الدعوة إلى الله تعالىٰ :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون : ٢٥ـ٢٦] .

واستمر عليه السلام على خطِّ المجادلة بالحسنى والحوار السلمي الهادئ ، وكان يهتمُّ كثيراً بمسألة إقامة الحجج والبراهين ، وتقديم الأدلة العقلية على توحيد الله وربوبيته ، مستدلاً بكل ظواهر الكون ، وكان بين الحين والآخر ، يقدِّم تقريره إلى الله تعالى .

ففي سرد وقائع القصة : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح : ١٠ـ٢٠] .

إنه يدعوهم إلى فضيلة التوكل على الله ، وهم يدعونه إلى الكفر بالله ، ثم يهددونه بالطرد والرجم!!

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١-١٢] . وكانت النتيجة الحتمية : انتصار الحق وإهلاك الباطل : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٩-١٢٠] .

وفي قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام مع قومه :

يبرز الجانب المهم وهو التركيز على الحوار والجدال بالحسنىٰ :

ففي بداية الدعوة بيَّن إبراهيم عليه السلام كل البراهين والحجج الدامغة ، بحيث وجَّه إليهم ما يحرك عقولهم : كيف تعبدون أصناماً تنحتونها بأيديكم ؟ وكيف تطلبون منها الرزق وهي العاجزة عن ذلك ؟ قال الله تعالىٰ في تصوير ذلك :

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ

﴿إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

[العنكبوت : ١٦ـ١٧]

ثم ركَّز في دعوته على أبيه (آزر) والذي كانت صنعته نحت الأصنام!!

لقد حاوره وقدَّم الحجج وتلطَّف معه حتى في انتقاء الكلمات ، فما كان من الأب إلا أن هدَّد بالطرد والرجم بالحجارة!!

فقابل إبراهيم عليه السلام ذلك التهديد والوعيد بالوعد بأن يستغفر الله ويطلب منه ألا يمسَّه بعذاب نتيجة عناده ، وفي ذلك دروسٌ كثيرةٌ لكل من يسير على طريق الدعوة إلى الله تعالىٰ ، وخاصةً مع الشاردين والمنحرفين :

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[1] [مريم : ٤١-٤٧] .

وهذا أمرٌ في غاية العجب! إبراهيم عليه السلام يريد لأبيه الهداية والرشاد ، وآزر يريد منه الخروج من البلاد ، أريد حياته ويريد موتي!!

ومن نماذج مناظراته عليه السلام مع قومه ، تلك التي حكاها القرآن الكريم :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٩-٨٣] .

لقد بدأ الحوار بطرح أسئلة مثيرة :

---

(١) للتوسع في ذلك يراجع كتاب : أسس دعوة خاتم النبيين . للمؤلف : ٣٧-٦٢ .

﴿ما تعبدون﴾ فكان جوابهم حجة عليهم!! ﴿قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين﴾ .

فطرح سؤالاً أكثر إثارة ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون ۞ أو ينفعونكم أو يضرُّون﴾ فكان لا بدَّ أن يجيبوا بشيءٍ من الصراحة والوضوح ، ولكنهم حاولوا أن يلصقوا ذلك بآبائهم : ﴿قالوا بل وجدْنا آباءَنا كذلك يفعلون﴾ .

لكن هل يفيدهم التقليد الأعمى للآباء والأجداد ؟ .

أبداً : فالنافع والضار ، والخالق والرازق ، والمحيي والمميت ، والشافي والمتجاوز عن الأخطاء ، هو الله وحده .

أما قصة مناظرته مع ملك بابل الجبار (نمرود) ، ففيها دلالات واضحة على مسألة الجدال بالتي هي أحسن ، على الرغم من الموقف الاستكباري الذي انتهجه (نمرود) في الاحتجاج ، ولذلك طرح إبراهيم مسألة إحياء الله للكائنات ، وإماتتها بمشيئته وقدرته ، فما كان من (نمرود) إلا أن تبجَّح وادعىٰ أنه كذلك يحيي ويميت!!

واستدل على كذبه وادعائه هذا ، بأن استدعىٰ شخصين محكومين ، فعفا عن المحكوم الأول ، وأمر بقطع عنق

الثاني ، وقال لإبراهيم : ها أنذا أحييت الأول وأمتُّ الثاني ! !

فردَّ عليه إبراهيم عليه السلام أن هذه الشمس التي يراها الناسُ يأتي اللهُ بها من المشرق كلَّ يوم ، فإنْ كنتَ يا نمرودُ ربّاً فدعْها تأتي من الغرب ، لكن أنَّىٰ للنمرودِ ذلك ؟! قال تعالى في ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

لكن وكعادة المعاندين في كل زمان ومكانٍ ، لم تنفعهم هذه الحوارات الهادفة وذلك لإصرارهم وعنادهم على الباطل ، فأراد إبراهيم عليه السلام إقامة الحجة عليهم بشكل ملموس ومحسوس .

فحمل فأسه ودخل إلى مكان تجمّع أصنامهم ، وراح يكسّرها ، حتى إذا ما انتهىٰ من ذلك كله ، علَّق الفأس على كتف كبير الأصنام .

وفي اليوم التالي جاؤوا إلى مكان العبادة ، ولما دخلوا رأوا منظراً مفزعاً ! ! إن الأصنام الآلهة قد كُسِّرتْ رؤوسها ، فتشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن من قام بذلك هو إبراهيم

عليه السلام ، وأتوا به وسألوه عن ذلك ، قال : إن الذي فعل ذلك هو كبير الأصنام ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، وبالفعل تحرَّك في داخلهم شيءٌ قليلٌ من التفكير وقالوا : حقاً هؤلاء لا حراكَ فيهم فكيف نعبدهم ؟!

ثم عادوا إلى نصرة آلهتهم فأمروا بإحراق الخليل إبراهيم ، لكنها عناية الله للموحدين في كل زمانٍ ومكانٍ ، وكانت النتيجة نصراً مؤزراً ، لقد لجؤوا إلى سياسة التهديد والتعذيب ، وجمعوا الحطب ، وأوقدوا ناراً عظيمةً ثم ألقوه فيها ، ولكن أنَّىٰ ذلك كله ومعه الله الواحد القهار ؟!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ

بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١ـ٧١] .

* * *

لكن ولكي لا يحتج أحدٌ على أن هذه النماذج القرآنية قام بها أنبياء الله فقط ، وهم على ماهم عليه من المكانة الرفيعة والأخلاق الفاضلة ، جاء القرآن بنماذج أخرىٰ في مجال الجدال بالحسنىٰ والحوار السلمي ، من ذلك :

أن الله سبحانه وتعالىٰ علَّم حبيبه محمداً ﷺ كيف يردُّ على اليهود الذين أنكروا تنزّل كتب سماوية على أحدٍ من البشر ، وكان الهدف من إنكارهم ذلك : إنكار كل ما جاء في القرآن الكريم .

وكانت الالتفاتة الرائعة في هذا أن الله علَّم الرسول أن

يسألهم عن الكتاب الذي نزل على نبيّ بني إسرائيل وهو موسى عليه السلام ، فإن اعترفوا بالتوراة فلا بدَّ أن يعترفوا بالقرآن ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

ومن ذلك أيضاً :

ما يقع فيه كثير من المجادلين ، وذلك حينما ينكرون وحدانية الله ، ويلجؤون إلى اتخاذ آلهة من دونه ، فيعبدونها ويقدمون إليها القرابين ، وذلك بهدف جلب المنافع ودفع الضرر ، وقد علَّم الله رسوله محمداً ﷺ كيفية مجادلة أمثال هؤلاء ، وركز على مسألة طرح الأسئلة الدقيقة ، وهذا منهج في الجدال الحسن ، لو عاشه الدعاة إلى الله مع الآخرين ، بعيداً عن الشتائم والاتهامات والمهاترات والتكفير والزندقة وما إلى هنالك ، لفتحوا قلوب العباد قبل فتح البلاد ، قال الله تعالى :

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ

لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ـ ٩٢].

إذاً :

لابد في حال الجدال بالتي هي أحسن أن يعلن الطرفان عن استعدادهما للخضوع للحقيقة حينما يتوصلون إليها ، ذلك لأنه لا أحد يملك الحقيقة بشكل مطلق ، إنما قد تمتلك أنت (٤٠٪) منها ، ويملك الآخر (٢٠٪) منها ، ويملك الثالث (٤٠٪) منها ، فإذا اجتمع الناس وتنازل كل واحدٍ عن عصبياته ، وأخذ بوجهة نظر الآخرين ، فإن الكل سيتوصلون إلى الحقيقة أنَّىٰ كانت ، ولاضيرَ إن اعترف المخطىءُ أنه لم يكن يملك الحقيقة ، بل علىٰ العكس تماماً ، فالذي يتراجع عن تصوّراته ، ويعترف بأخطائه ، فهو الرجل الشهم الخلوق :

وَمَنْ ذا الذي تُرْضَىٰ سجاياهُ كُلُّها كفىٰ المرءَ نُبلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ[1]

وهذا المنهج الجدلي هو منهج قرآني ، قال تعالى وهو في معرض تعليم رسوله ﷺ قاعدةً رائعةً :

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ : ٢٤] .

كذلك فعلىٰ المتحاورين أن يتأدَّبوا بالآداب العامة ، فلا يتلفظون إلا بالكلمات اللبقة المهذبة ، ولا يتعرضون لشتم الآخرين وسبِّهم ، لأن ذلك يؤدي إلى ردَّة فعل ، كما قال تعالىٰ :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي وغيره : « ليس المؤمن بالطَّعَّان ، ولا اللعَّانِ ، ولا الفاحش ، ولا البذيء » .

كذلك ، فعلى المتحاورين تقديم الأدلة المنطقية

---

(١) للتوسع يراجع كتاب : الحكم العطائية في ثوبها الجديد ، للمؤلف : ١٥٧ـ١٧٩ .

السليمة ، فإن كان الكلام من المنقول فيجب أن يكون صحيحاً ، وإن كان مدَّعياً فلا بدَّ من الدليل .

ولابدَّ من الابتعاد عن المرويات الضعيفة والمكذوبة ، والخرافة والأساطير ونحو ذلك ، وخاصةً وأننا نعيش في عصر العلم والمعرفة .

والقرآن الكريم قد حشد مئات الأدلة العلمية على مسألة توحيد الله مثلاً ، خاصةً وهو يركز على مسألة الاستدلال ، ولم يلتفت إلى ما تناقله الآباء والأجداد ، بل اعتبر ذلك نقطةَ ضعفٍ ، فمتى كانت أمور العقيدة تُورّث دون تمحيص ؟!

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

فمن حمل البرهان والحجة والمنطق ، فعليه أن ينفتح على كل الناس ، يجادلهم ويحاورهم ، لكن تحت الشعار القرآني (بالتي هي أحسن) ، وإلا ؛ فلا!!